المحاضرة الخامسة: بيبلوغرافيا لسانيات النص وتحليل الخطاب

تمهيد:

1. **موضوع بيبليوغرافيا لسانيات النص وتحليل الخطاب:** تندرج هذه الكتابات في مجالات تحليل الخطاب، ولسانيات الخطاب، ونحو النص، وعلم النص، وقد فتح هذا الباب من اللسانيات جانبا معرفيا جديدا كان له تأثير بالغ في التّطور المعرفي لعلم اللّغة، هذا الفرع المعرفي الجديد قد نشأ وتطور تدريجيا بداية من النصف الثاني من الستينات والنصف الأول من السبعينات، ثم ازدهر و تطور، وألفت فيه مؤلفات كثيرة، نذكر منها:

- مدخل إلى علم اللغة النصي،
- التحليل اللغوي للنص مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، لكلاوس برينكر. ترجمه حسن بحيري، مؤسسة المختار، الطبعة الأولى، 2005.
- في اللسانيات وتحليل النص، إبراهيم خليل
- علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دراسة تطبيقية على السور المكية، صبحي إبراهيم الفقي
- لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد الخطابي
- اللسانيات وتطبيقاتها على الخطاب الشعري، رابح بوحوش
- دراسات في تحليل الخطاب الأدبي، بشير إبرير

2. **لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد الخطابي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1991.**

إن السؤال الذي محور المؤلف حوله اهتمامه، هو: كيف يسنج الخطاب الشعري؟ هل تكيف الأدوات والمفاهيم المقترحة من قبل الغربيين لدراسة وصف انسجام الخطاب الشعري الحديث؟ في الوقت الذي ركزت فيه على نوعين خطابيين: التخطاب والسرد التقليدي البسيط الذي يسري وفق مجرى حديثي نمطي.

والإجابة عن تلك التساؤلات اقتضت تقسيم كتابه إلى: ثلاثة أبواب، الباب الأول خصصه لعرض مجمل لمقترحات الغربية وقد قسمه إلى أربعة فصول، تطرق في الأول إلى منظور اللسانيات الوصفية التي تتبع اتساق النّص، معتمدا على مؤلف هاليدي ورقية حسن، المسمى الاتساق في اللغة الإنجليزية. أما الفصل الثاني فسمّاه منظور اللسانيات الخطاب، وقد استعرض فيه اقتراحات الباحث الهولندي فان ديك، من خلال كتابه النص والسياق، الهادف إلى وضع لسانيات الخطاب لتجاوز القصور الذي تعانيه لسانيات الجملة.

3. لسانيات النص: نظرة عامة

سبب بروز هذا النوع من الدراسات هو عدم الاكتفاء بالجملة في التحليل اللغوي، على الرغم من أنها نواة النص، وتحاول المؤلفات في هذا الباب عرض الوسائل التي يمكن من خلالها إدراك دلالة النص الكاملة لا الجملة منفردة، مما يفضي إلى درجة عالية من التغلغل الواعي في كيان النص، وهي تنظر إلى النص بعده وحدة متكاملة لا يمكن الفصل بين مستوياته (الصوتية والصرفي والتركيبية، والدلالية، والأسلوبية، والتداولية.)

إنَّ أبرز ما يميز النّصَّ عن اللّانص هو ذلك التّماسك الشّديد حيث يمثل صلب النظرية النصية والذي تدور في فلكه أغلب جوانب التحليل النصي المعاصر. ومن المفاهيم التي تشيع في هذه البيبليوغرافيا مفهوم اتساق النص وانسجام النص، أو المفاهيم المرتبطة بهما كالترابط والتعالق وما شاكلها، كما يحتل اتساق النص وانسجامه موقعا مركزيا في الأبحاث التي تندرج في مجالات تحليل الخطاب ولسانيات الخطاب، ونحو النص، وعلم النّص.

ويُقصد بالاتساق: ذلك التماسك الشديد من الأجزاء المشكّلة للنص، أو خطاب ما، ويهتم فيه بالوسائل اللغوية الشكلية، التي تصل بين العناصر المكونة لجزء من الخطاب، أو خطاب برمته، من أجل وصف اتساق الخطاب، يسلك المحلل الواصف طريقة خطية متدرجا من بداية الخطاب حتى نهايته، راصدا الضمائر والإشارات المحيلة، قبلية أو بعدية، مهتما أيضا بوسائل الربط المتنوعة كالعطف والاستبدال، والحذف، والمقارنة والاستدراك. كل ذلك من أجل البرهنة على أن النص أو الخطاب المعطى اللغوي بصفة عامة، يشكل كلًّا متآخذا، غير أن الانسجام أعم من الاتساق، كما أنه يغدو أعمق منه، بحيث يتطلب بناء الانسجام من المتلقي صرف الاهتمام جهة العلاقات الخفية التي تولد النص.

إرهاصات البحث في اللّسانيات النصيّة والخطابيّة في العصر الحديث :

من نحو الجملة إلى نحو النص:

ينكشف الباحث المتفحص في الدراسات اللّغويّة الغربيّة أن الاهتمام كان منصبًّا حول الجملة، حيث ألقيت جل المقاربَات حولها باعتبارها أساسًا للوصف والتّحليل والدّراسة، إلى أن حدث منعطف غيّر من اتجاه هذه الدراسات من الاهتمام بالجملة إلى الاهتمام بالنص/الخطاب. وربّما يمكن القول أن البوادر الأولى لهذا الاتجاه كانت من إسهامات الباحث اللّغوي هاريس Z. Hariss في مؤلفه تحليل الخطاب Discours

Analysis 1952، حيث تضمّن هذا المؤلف دراستين غيّرا أفق الدراسات اللّسانية الحديثة بتقديمه أوّل تحليل منهجي لخطابات ونصوص بعينها[1].

استخدم هاريس في هذه المقاربة بعض الآليات والميكانزمات استلهمها من اللّسانيات الوصفية بهدف الوصول إلى بنية النص Structure of the text وقصر فيه الدراسة على الجمل والعلاقات فيما بين أجزاء الجملة الواحدة، والفصل بين اللّغة والموقف الاجتماعي ومنه اعتمد منهجه في تحليل الخطاب على ركيزتين:

-العلاقات التوزيعية بين الجمل.

-الربط بين اللغة والموقف الاجتماعي[2].

وبذا يمكن إرجاع الإرهاسات الأولى لتأسيس لسانيات الخطاب (قبل هاريس) مرتبطة باللسانيات التوزيعية التي كانت سائدة آنذاك في الولايات المتحدة الأمريكية في بداية الستينات، ومن أقطابها ليونارد بلومفيلد L. Bloomfield الذي كان ينظر إلى الجملة بوصفها وحدة ممكنة لا تخرج عن إطار المسند والمسند إليه [3]، وعليه فإنّ مجال تحليل الخطاب عند ز. هاريس ومنطلقاته لا تبتعد عن تلك الأدوات الإجرائية والآليات والتصوّرات التّي كانت تحلّل بها الجملة، حيث تتمثّل هذه المنطلقات في مبدأين هما:

-توسيع حدود الوصف اللساني إلى ماهو خارج الجملة.

-دراسة العلائق الموجودة بين اللّغة والثقافة والمجتمع.

ومنه فإن الخطاب وفق تصوّر هاريس "ملفوظ طويل، أو متتالية من الجمل تكون مجموعة منغلقة، يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر بواسطة المنهجيّة التوزيعية وبشكل يجعلنا نظلّ في مجال لساني محض"[4]، وبالإضافة إلى الاغتراف من المنهج التوزيعي، اعتمد هاريس في تحليله على سياق النصوص ونقل ما يتصل بتحليل الجملة تحليلاً بنيويا (التقطيع والتصنيف والتوزيع) إلى المستوى الجديد للنص وحاول بواسطة إجراءات شكلية أن يصل إلى توصيف بنيوي للنصوص. لقد توسّع هاريس في بعض الأفكار التّي تعود إلى سوسير

([1]) ينظر سعيد حسن البحيري، علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، ص18.

([2]) ينظر جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، للهيئة المصرية العامة للكتاب،1998، ص 66/65.

([3]) ينظر: أنور المرتجي، سيميائية النص الأدبي، إفريقيا الشرق، المغرب،1987، ص 80.

([4]) ينظر: سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط الثالثة،1997، ص 17.

الّذي رأى أنّ الجملة عبارة عن تتابع من الرموز، وأن كلّ رمز يسهم بشيء من المعنى الكلي، لهذا فكلّ رمز داخل الجملة يرتبط بما قبله وما بعده[5].

والحقيقة أن المقاربات التّي انبثقت من دراسات نحو الجملة قد "قدّمت تحليلات جزئية مهمّة لبعض الجوانب الخاصّة بالعلاقات بين أجزاء الجملة والمتواليات الجمليّة، وشروط الفصل والوصل، ومعاني الأساليب وأشكال السياقات والدلالات الخاصّة..." إلاّ في إشارات دقيقة في العلاقات الدلاليّة العميقة التّي تربط بين الجمل والمتواليات الجمليّة. ورأوا كذلك أن كثيرًا من الظّواهر التركيبية لم تفسّر في إطار نحو الجملة تفسيرا كافيا مقنعا، وأنه ربما تغيرت الحال إذا اتجه الوصف إلى الحكم على هذه الظواهر في إطار وحدة أكبر من الجملة، ويمكن أن تكون تلك الوحدة هي النص"[6].

وهكذا انطلقت الأبحاث المتعلقة بعلم اللغة؛ بالتّصدي لدراسة النُّصوص والخطابات وتحليلها، قد كانت هذه المقاربات تسير سيرًا يخالف في بعض تمظهراته خطى اللسانيات الوصفية التقليديّة، كالتّخليّ على شرط الاعتماد على اللّغة المنطوقة دون المكتوبة بحجّة أنّ المنطوقة هي التّي تمثّل الطبيعة الجوهريّة للّغة، وكان من بين الرّواد الذين كان باع طويل في هذا التصوّر الجديد هاريس الّذي شكك بقدرة علم اللّسان على تجنب الكلام المكتوب في الدراسات المرتبطة بالمجال اللغوي باعتبار أن علم اللسان قد عُني أيضا بالجملة المنطوقة ولكنه تناسى وجود جملة طويلة، ولا متناهية، يعجز النحو (نحو الجملة) وحده عن استلهام قواعدها ما لم يعتمد على الكتابة التّي تفرض علينا دراسة النص[7].

كما كان لظهور لسانيات النص ارتباطًا وثيقا بالنظريّة التوليديّة التحويليّة التّي كانت ترى أن الاستعمال اللّغوي غير قابل للتحديد، وظهر ذلك من خلال تركيزها على الوصف العملي بين التركيب اللّغوي والخصائص الفكرية، حيث قام بتجزئة الظاهرة اللّغويّة بين النحويّة Grammaticalité والمقبولية acceptabilité، واعتبر أنّ مجال الدّراسة النحويّة يتعلق بمجال القدرة (أي الجملة)، وأنّ مجال دراسة المقبولية متعلق بمجال الإنجاز (النص/الخطاب)[8]. وفي هذا الطرح دلالة صريحة وواضحة على وجوب فتح آفاق دراسيّة تعمل على وصف النصوص والخطابات وتحليلها المرتبطة بدورها بسياقاتها والظروف التّي أنتجت فيها. وبالتّالي يمكن عدّ هذه الآراء نقطة تحوّل داعية إلى أهميّة تجاوز الدِّراسات اللغويّة من مستوى الجملة إلى مستوى النص والربط بين اللغة ممثلة بالنصوص والخطابات والموقف الاجتماعي، مشكلين بذلك اتجاها جديد[9].

([5]) ينظر: سعيد حسن البحيري، علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، ص20.

([6]) المرجع نفسه، ص 134.

([7]) ينظر: إبراهيم خليل، في اللّسانيات ونحو النص، دار الميسرة، الطبعة1، الأردن 2007، ص 187.

([8]) ينظر محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، تأسيس نحو النص، ص82/81.

([9]) ينظر: جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة واللسانيات النصّية، ص22.

ومن بين العلماء الباحثين الّذين ساروا وفق هذا التصور نلفي هاليداي Halliday، حيث بنى رؤيته وفق نظرة مخالفة تفنيدية للرؤى التقليدية مفادها أنّ اللّغة ظاهرة اجتماعيّة وأن أدوات التعبير عن المعاني مختلفة متباينة استنادًا إلى تنوّع الثقافات كالرّسم، والنحت والموسيقى...الخ، ذلك أن تصوره مبني ومنصب على دراسة اللغة في علاقاتها بالبنيات الاجتماعية المختلفة، وهو الأمر الذي كان غائبا في المبحوث اللّغويّة السّالفة، وبهذا فإن الفهم الصحيح للّغة كنظام يستدعي ضروريّا فهم واستيعاب الطريقة التّي تعمل بها النصوص أي الانتقال من الاهتمام بمستوى الجملة إلى الاهتمام بمستوى النص[10].

إنّ هذا الانتقال (من مستوى الجملة إلى مستوى النص) يفرض بالضرورة إعداد مجموعة من الفعاليات والآليات المستمدّة من قواعد دلاليّة ومنطقية إلى جوار القواعد التركيبية قصد تحقيق تحليل ووصف سليم للنصوص والخطابات والوصول إلى صياغات كلية دقيقة الأبنية النصيّة وقواعد ترابطها، ومن بين الظواهر النصيّة المختلفة التّي عني بها الدّرس اللّساني في دراسته لنحو النص: علاقات التماسك النحوي النصي، وأبنية التطابق، والتقابل، والتراكيب المحورية والمجتزأة، وحالات الحذف وغير ذلك من الظواهر التّي تخرج عن مجال الجملة[11].

إن توسيع مجال الدراسة إلى مجال أوسع يخصّ النص ككل والعلاقات الرابطة بين الجمل المشكّل له أدىّ إلى تفنيد التّصَوُرات الكلاسيكية المرتبطة بدراسة الجملة والتّي تبعث في المستويات الأربعة الصّوتية والصّرفية والتركيبية (النحويّة) والدّلاليّة كما أدى إلى توجّهه إلى مجال أرحب وأوسع يتجاوز مجرّد الإعداد لمبادئ القواعد (نحو الجملة) إلى دراسة عبارات اللّغة في كليتها ودراسة الأشكال والبُنى الخاصّة بها والتّي تستعصي على دراسات نحو الجملة[12]. وتظهر أحقية ومصداقية هذه الفكرة كون أنّ "مهمّة نحو النّص كما يرى فان ديك القائم على أسس توليديّة، تحويلية هي صياغة القواعد التّي تمكّننا من حصر كل النصوص النحويّة في لغة ما، ومن تزويدنا بوصف للأبنية، ومِثلُ ذلك النحو النصي يعدُّ إعادة تشكيل شكلية للثروة اللغويّة لدى مستعمل اللّغة وإنتاج عدد لا نهائي من النصوص بصورة محتملة"[13].

([10]) ينظر: بشير إبرير، من لسانيات الجملة إلى علم النص، مجلة التواصل، ع 14 جوان 2005، جامعة عنابة، الجزائر، ص86/85.

([11]) ينظر: أحمد عفيفي، نحو النص، مكتبة زهراء الشرق، جامعة القاهرة، 2001، ص 39.

([12]) ينظر: منذر عياشي، العلاماتية وعلم النص، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى بيروت، لبنان،2004، ص 139.

([13]) سعيد حسن البحيري، علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، ص 157.

وقد انجرّ عن هذا المخاض الفكري الألسني ولادة لسانيات النّص التّي أخذت على عاتقها دراسة النصوص وتحديد مميزاتها ومدى تماسكهما واتساقها والبحث عن محتواها الإبلاغي التواصلي [14]، وبذا فإن ميدان اللّسانيات النصيّة متشعب من حيث الوظيفة؛ فبالإضافة إلى كونه يختص بدراسة الجملة من حيث الشكل والقواعد النحوية والمبادئ التي تحكمها، فإنه يركز كذلك في أبحاثه على العلاقات القائمة بين مجموع الجمل المكوّنة للنص والسياق غير اللغوي Extra linguistique وما يحمله من معطيات تساعد على الوصف السليم للخطابات وفهمها.

غير أنّه يجب التنبيه في هذا المقام أن أهم مقولة تنتسب إلى لسانيات النّص هي النصيّة، حيث تحتلُّ هذه الأخيرة موضعًا مهمّا، لأنها تقوم على تحديد واكتشاف الأبنية اللّغوية وكيفية تماسكها، كما تُلقي مقارباتها على الكيفيات التّي تجعل النص / الخطاب يتمتع بالانسجام والتّماسك.. وغير ذلك ممّا يجعل النّص منظمًا [15]. وعليه يكون هذا المفهوم بمثابة الضابط والمؤشِّر في تحديد النصوص عن غيرها، أي البحث عن المبادئ التّي تجعل من عبارات معيّنة في سياقات معيّنة تحمل مصطلح النص / الخطاب.

([14]) ينظر: أحمد مداس بن عمار، تحليل الخطاب الشعري من منظور اللّسانيات النصيّة، تحولات الخطاب النقدي المعاصر، كلية الآداب، جامعة اليرموك، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2006، ص 425.

([15]) ينظر: المرجع نفسه، ص 495.